

الاستـــــتعراضُ القارونيّ

أ. هلا العريـفي
مترجمة وطالبة دراسات قرآنية

{المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملًا} [سورة الكهف-٤٦]

بهذه الآية عقّب المولى عزّ وجل على قصةِ صاحب الجنتين في سورة الكهف بعد ذكره أحداثَها، فإنّ من عادةِ الأسلوب القرآني الأخّاذ في سردِ قصصِ السابقين وأخبارهم، أن تُختتم القصة بتقريرِ سنةٍ من سنن الله تعالى في كونه، وتوكيدِ حقيقةٍ جليّة إلا أنّ غشاوةَ الهوى تُعمي بعض البشر وزخارف الدّنيا تُغويهم، فكان هذا القرآنُ العظيم هدىً وذكرى لكلّ ذي لُبّ كي يتفكّر، ويُبصر حقائقَ الأشياء وبواطنها ولا تغرّه ظواهرها {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألباب} [سورة ص - ٢٩].

فمن الحقائق التي غابت عن صاحبِ الجنتين حتى جعلته يغترّ ويستطيل بنعمةِ الله على صاحبه الذي كان أقلّ منه رزقًا: اعتقاده دوامَ الحال التي كان عليها من وفرةِ الخيرِ والمال، وحتميّة البعثِ ولقاءِ الله تعالى للحسابِ والجزاءِ، وأنّه لا تلازم بين عطاءِ الدّنيا وعطاءِ الآخرة.

ولا يزالُ هذا النموذج المزهوّ بما أوتيَ من صنوفِ النّعيم الدنيوي يتكرر بتعاقبِ الزمان، وباختلافِ الحضاراتِ والأمم، وقد خلّد القرآنُ الكريمُ إحدى هذه النماذج حاكيًا عن طغيانِ ابن آدم وبغيه حين تُفتح له الدّنيا، وتُبسط له خيراتُها وثرواتُها، وأقامَ أمثولةً تروي صراع الحقّ والباطل، وتمايزِ صفوفِ أصحابِ البصائر النّافذة في جواهرِ الأمور ومآلاتها، عن المُنبهرين بزينةِ الحياة الدّنيا الذين يُقلّبون أكُفّهم أسفًا ويقرعون أسنانَهم ندمًا على فواتِ حظوظِها.

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ} بداية مُجلجلة تهزّ وجدانَ التّالي لأواخرِ سورةِ القصص حيث ذُكرت قصّة قارون، ومما ينقدحُ في الذّهن هو التساؤل عن صورةِ هذا البغي، أكانَ بغيُ قارون كفرُه باللهِ تعالى؟ أم كان بغيُه في شيءٍ آخر؟ لقد كان قارون ابن عمّ موسى ومؤمناً بدعوته، وعابداً تالياً للتوراةِ مُتغنٍ بها حتى عُرف بحسنِ صوته(١)، ولكنّه بغيُ المالِ حين يتعدّى كونَه قوامًا لحياةِ المرء فيصير سببًا في اعوجاجها عن السبيلِ القويم -اللهمّ سلّم-.

وحين افتُتنَ قارون بهذا المال، سعى ليكون أثرى أثرياءِ ذلك الزمان؛ فمما قيل في معنى اسمه أنّه لقبٌ لُقّبَ به باللسانِ المصريّ القديم ويعني الجامع أو الحاوي للمال؛ فاللفظان المصريان: [كار، قار] يفيدان معنى الاحتواءِ والتخزينِ والحفظ(٢). لم تكن ثروة قارون شيئًا عاديًا، إنّما كانت حدثًا استثنائيًا ملأ الأسماعَ والأبصار، تتناقله الألسن، وتهفو إليه النّفوس، وتسرحُ فيه الأخيلة. يكفيكَ في وصفِ هذه الثروة قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} فمفاتح خزائنِ أمواله تعجز أقوى الجماعاتِ عن حملِها، هذه المفاتيح؛ فما ظنّك بالخزائن؟(٣)

وإنّه لشيءٌ عُجاب، أن يحظى قارون الذي هو من بني إسرائيل بهذه المكانةِ الاجتماعيّةِ المرموقةِ في المجتمع المِصريّ، ويتنعّم بكلّ تلك الممتلكاتِ والكنوزِ الهائلةِ في زمن الطّاغية فرعون المُستعبد لبني إسرائيل، والذي آلى على نفسه أن يُقتّلهم ويُشرّدهم ويستحيي نساءهم. فما سرّ هذه الأموالِ الطائلة؟ مما أورده بعض المفسّرين حول كنوزِ قارون أنّها كانت نتاجَ تجارته وكدّه، أو أنّها هباتٌ وعطايا للمُقرّبين من البلاطِ الملكيّ الفرعوني، حيث كان قارون عينَ فرعون على بني إسرائيل، ينقلُ إليه أخبارهم ويبوح له بأسرارهم وتحرّكاتهم؛ فهو بذلك عميلٌ بارع يستحقّ التقريبَ والتّوجيب. وتبدأ فصولُ الخيانةِ والثورةِ على تعاليمِ موسى عليه الصلاة والسلام، وارتداءِ جُبّةِ الجبروتِ الفرعونيّ ليتحوّل قارون إلى عنصرِ ظلمٍ إضافيّ لبني إسرائيل إلى جانبِ ظلمِ فرعون!

فمما تذكره الرّواياتُ الإسرائيلية عن قارون (قورح أو hcaróK)(٤) أنّ الحسدَ دبّ إلى قلبه



فتمـرّد علـى دعـوةِ موسـى وهـارون عليهمـا الصـلاة والسـلام، وألّب عليهمـا النـاس مُحتجًا بزعمه أنّ موسـى وهـارون ليسـا سـوى رجليـن عادييـن مـن بنـي إسـرائيل، وأنّهمـا ليسـا أحـقّ بالاتبـاعِ منّـه. إنّـه الغـرور حيـن يتمكّـن مـن الإنسـان، فينـازع الوحـي، ويعتـرض علـى اختيـارِ الخالـق عـزّ وجـل سـالكًا بذلـك طريـقَ إبليـس حيـن قـال: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، ويظـنّ أن مـا يملكـه مـن جـاهٍ يخوّلـه مـن استحقاقِ مكانـةٍ لا يستحقها الآخـرون. حتـى تمـادى بـه الأمـرُ إلـى مجـاراةِ فرعـون ووزيـره هامـان فـي تكذيبهـم موسـى عليـه الصلاة والسلام واتّهامه بالسحر {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٢) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [سـورة غافـر - ٣٢-٤٢].

وأثنـاءَ صمـتِ بعـضِ الأفـواهِ عـن صنيـعِ قـارون، نطـقَ الصالحـون مـن بنـي إسـرائيلَ محذّريـن وناصحيـن: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٦٧) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} فنهـوه عـن فرحِ البطـرِ الـذي يُذهِـلُ صاحبـه عـن شـكرِ ربّـه، فيُقبِـل علـى هـذه الدّنيـا وينكـبّ علـى محبتهـا فتلهيـه عـن آخرتـه، ثـمّ دعـوه إلـى أربعـةِ أمـورٍ هـي وصايـا قرآنيـة هامّـة لـكلّ ذي مـالٍ:

دعـوةٌ إلـى البـذلِ مـن مالـه لآخرتـه فقـد أُعطـيَ مـا لـم يُعـطَ غيـره ممـا يكـون سـببًا فـي تحصيلـه الجنـان ورضـا الرحمـن، وأخبـروه أنّهـم لا يرشـدونه بذلـك إلـى بـذل كل مالـه والامتنـاعِ عـن الاستمتاعِ فيمـا أحلّـه اللّه لـه وفيمـا لا يثلـمُ دينـه، وإنّمـا ينفـقُ بعضـه ويتمتـع ببعـض، وأن يُحسـنَ إلـى خلـقِ اللّه ويُحسـنَ إليـه سبحانه بطاعتـه وعبادتـه كمـا أحسـن المولـى إليـه بنعمـه(٥)، وألا يُفسـد فـي الأرضِ بتكبّـرهِ وعصيانـهِ واشـتغالهِ بالنّعـمِ عـن المُنعـم(٦).

فهـل رقّ قلـبُ قـارون لذلكـم الرّفـق وتلكـم الحكمـة فـي النّصـح؟

{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي}

«إنّ هـذه الكنـوز التـي ترونهـا يـا قـوم، إنّمـا هـي مـن كسـبي وبجـدّي واجتهـادي، وبسـبب محبـةِ اللّه لـي

ومـا رزقنيهـا إلا لعلمـه أنّـي أسـتحقّها!» ومـا أشـبه الليلـة بالبارحـة، فكـم مـن {أوتيته على علمٍ} باتـت تتـردد علـى الألسُـن باسـمِ قوانيـنِ الاسـتحقاق وتضخيـمِ الـذات، ومـا ذلـك والله إلا إخفـاقٌ فـي معرفـةِ العبـدِ ضعفـه ونقصـه، وكان ممـا أوصـى بـه النبي-صلـى الله عليـه وسـلم- ابنتـه فاطمـة -رضـي الله عنهـا- قولـه: «مـا يمنعـكِ أن تسـمعي ما أوصيكِ بـه، أو تقولـي إذا أصبحـتِ وإذا أمسـيتِ: يـا حـيّ يـا قيّـوم برحمتـكَ أسـتغيثُ، أصلح لـي شـأني كلـهُ، ولا تكلنـي إلـى نفسـي طرفـةَ عيـن» [رواه النسـائي وصححـه الألبانـي] يقـول ابـن القيـم رحمـه الله معلقًـا علـى هـذا الحديـث: «مِـن ههنـا خـذل مَـن خُـذل، ووُفّـقَ مَـن وُفـق، فحُجـبَ المخـذولُ عـن حقيقتـه، ونسـي نفسـهُ، فنسـي فقـره وحاجتـه وضرورتـه إلـى ربـه، فطغـى وعتـا، فحقّـت عليـه الشّـقوة، قـال تعالـى :{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ}(٧) [سـورة العلـق-٦/٧]

ثـمّ جـاء الـردّ الإلهـي ليسحقَ هـذه الأنـا المُتعالية، وليقـررَ حقيقـةً لا يغفـل عنهـا إلا جاهـلٌ بربّـهِ وبنفسـهِ: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} إنّ هـذه النّعـم التـي يرفـلُ بهـا قـارون ليسـت دلالـةً علـى محبـةِ اللهِ لـه؛ فقـد أهلـك اللهُ مـن كانـوا أشـدّ منـه ثـراءً لمّـا بطـروا وجحـدوا نعمـةَ الله، كمـا أنّـه لا تـلازم بيـن العطـاءِ المـاديّ ورضـا الله عـن الإنسـان؛ فـإنّ الله يعطـي الدنيـا مـن يحـبّ ومـن لا يحـبّ، ولا يعطـي الآخـرةَ إلا لمـن يحـبّ.

وعقـب تلـكَ المقولـةِ المُترعـةِ بتفخيـمِ النّفـس، أدارَ ظهـرهُ عـن النّاصحيـن، ليخرجَ ذاتَ يـومٍ بأبّهتـه: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ}، فحدّقـت بـه العيـون، وتعاظمتْـه النّفـوس، وإزاء هـذا الظّهـورِ الخاطـفِ للأنظـارِ انقسـمَ المؤمنـون إلـى قسـمين: قسـمٌ ضعيـفٌ يقينُـه، شـديدٌ تعلّقُـه بزُخـرفِ الدّنيـا: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، وكـم أضحـت {يا ليتَ لنا} تكثُـر فـي عالمنـا اليـوم الـذي يعـجّ بمظاهـرِ الاسـتعراضِ القارونـيّ المتغطـرس، لتتسـاقطَ أمامـه بعـض القلـوب نادبـةً حظوظهـا، وصائحـةً: {إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}! فـإنّ وسـائلَ التّواصـل الاجتماعـيّ التـي بيـن أيدينـا قـد تحوّلـت مـن كونهـا وسـائلَ للتواصـلِ المحمـود إلـى معـاولَ هـدمٍ للبيـوتِ، وأدوات تفكيـكٍ للأُسـر، ونوافـذَ للتباهـي والتفاخـر بكافّـة أشـكالِ الممتلـكاتِ والمـاركات، ومسـاحاتٍ لإعلانـاتِ المشاهير وتجارتهـم بـلا مبـالاةٍ بجـوازِ هـذا المـالِ المجنـيّ مـن ورائهـا، وصـدق رسـولُ الله -صلـى الله عليـه وسـلم - حيـن قـال: {لَيَأْتِيَـنَّ علَـى النَّـاسِ زَمـانٌ، لا يُبالِـي المَـرْءُ بمـا أخَـذَ المـالَ، أمِـنْ حَـلالٍ أمْ مِـن حَـرام} [رواه البخـاري]. ولا يـزدادُ المُتفـرّجَ علـى هـذا الاسـتعراض إلا تيهًـا فـي دوّامـةِ الاسـتهلاك وتضييعًـا للأوقـات وإطلاقًـا للبصـر.

أمّـا القسـمُ الآخـر، هـم الذيـن لـم يغرّهـم تبختـرُ قـارون ولا تـراؤه، هـم ذوو البصيرة الذيـن عرفـوا حقيقـةَ الدنيـا وباطنَهـا ولـم يأسـرهم بريـقُ ظاهرهـا؛ فقـد أوتـوا مـن العلـم مـا جعلهـم يميّـزون الفانـي عـن الباقـي؛ فكانـوا يحـذّرون غيرهـم ويثنونَهـم عـن تمنّـي مـا كان عليـه قـارون مـن رزقٍ مـاديّ وحرمـانٍ مـن الرزق الأعظـمِ وهـو رزقُ الإيمـانِ والعمـلِ الصالـح: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُون}، وفـي هذه الآية دلالـةٌ علـى فضيلـةِ العلـم، وكونـه مـن المعينات علـى الثبـات أمـام الفتـن بـإذن الله تعالـى.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} لقـد كان الثمـنُ الـذي دفعـه قـارون باهظًـا جـدًا، لـم يدفعـه مـن كنـوزه، بـل دفـع نفسـه فابتلعتهـا الأرض التـي تكبّـر فوقهـا، جـزاءً وِفاقًـا.

وهكذا تُطوى قصّةُ رجلٍ أوتيَ ثراءً فاحشًا إلا أنّه فقيرُ القلبِ من معرفةِ فضلِ ربّه عليه، وواجبِ شكره بالقولِ والعمل. لتتبدّى للمتدبّر في آيات الله بعد مشاهدِ تلك القصة، حقيقة لا تقبل الشكّ لتعيها أذنٌ واعية: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.. لا يريدون علوًا بأموالهم وزينتهم؛ فتنصرفُ أنفسهم عن الدّار الآخرة ويصرفونَ غيرهم عنها، ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها.

وتُختتم قصة قارون في سورةُ القصص بخاتمة مهيبة تقفُ لها إجلالًا مشدوهًا من عظمتها: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بعد أن عرضت نموذجًا للعلوّ في الأرض بالجاهِ والسلطان ليُدرك الإنسان حين يبغي ويتكبّر بما أوتيه: أنّ مصيرهُ الفناء!

{ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلال والإكرام}.

المراجع:

(١) تفسير الطبري - سورة القصص.

(2) نشوء البيان - دراسات قرآنية لغوية تاريخية/احتمالات في معنى اسم قارون
http://mbtda.com/alqab/qarun.php

(٣) تفسير السعدي - سورة القصص.

(٤) هنالك خلاف عمّا إذا كان قورح هو قارون المذكور في القرآن الكريم، فقورح ابن يصهار المذكور في التوراة كان ثائرًا على دعوة موسى وهارون ولم يذكر عنه الغنى، إلا إن إحدى المخطوطات التلموديّة القديمة تذكر أن قورح كان رجلًا فاحش الثراء وقد عاقبه الله بأن خسف به وبممتلكاته الأرض (المصدر: صحيفة أورشليم):
https://www.google.com/amp/s/m.jpost.com/jerusalem-report/jewish-world/the-people-and-the-book-korah-and-material-wealth/amp

(٥) تفسير القرطبي- سورة القصص.

(٦) تفسير السعدي - سورة القصص.

(٧) طريق الهجرتين ص ٦١ - طبعة دار الفوائد.

(٨) تفسير ابن عاشور - سورة القصص.

(٩) تفسير ابن كثير - سورة القصص.

(10) Korah: The Rebel of the Bible By Yehuda Altein | Chabbad Organization

(١١) نظرات في سور القرآن | فايز السريح ، سورة القصص ص٢٣.